فصل من كتاب « عاصفة على السكر »

كانوا ينبعون من الأرض كالشياطين

تعلم جان بول سارتر

يصدر هذا الاسبوع عن دار الاداب كتاب « عاصفة على السكر » الذي وضعه الكاتب العالمي جان بول سارتر وتحدث فيه عن ثورة فيديل كاسترو ضد الاستعمار الاميركي . وننشر فيما يلي هذا الفصل من الكتاب

هوذا اذن سوء طالع كوبا ، المستعمرة التي تريد ان تتحرر ،وانني تجد نفسها بعد سنوات طويلة من الحرب ، نصف مستعمرة . ولقد بدأ ذلك عام ١٩٠٠ ، وبعد ٥٩ سنة نسف كل شيء : انها الثورة . فلماذا ؟

لان هذا المجتمع المحطم، المفتت ، لم يستطع ان يتحمل هزالـه الشديد . لقد انتج في جانبيه انقلابا عظيما تحت الارض ، اخذ عاما بعد عام ، يدور بسرعة متزايدة ، مكتسحا كل شيء ، جاعلا الوضع كل يوم اقل احتمالا من اليوم السابق : فمنذ نهاية القرن الماضي لم تكف نسبة المواليد عن الارتفاع . وقد كشفت بحبوحة العهود الاولى الحداعـه عن حركة تبناها البؤس لحسابه وعجل بها . لقد كان عدد سكان الجزيرة في عام ١٨٩٩ مليونا ونصف المليون . وفي عام ١٩٦٠ اصبح عددهم ستة ملايين وستمئة الف ..

وارتفاع نسبة المواليد هو صفة مشتركة للامم « المتخلفة اقتصاديا ». فامام الحياة وامام الموت يحتفظ الفلاح بعاداته التقليدية ، فيضع الاولاد بلا حساب : ان الطبيعة تعطيهم ، فاذا كانوا اكثر من اللزوم استردتهم .

ثم ان بالامكان ان نتصور ان قاطع القصب لم يكن في راسـه مايسمي في بعض البلاد « المستوى العائلي » . ان تنسيق الولادات يقتضي الايمان بالمستقبل .

وحتى عام ١٩٥٩ لم يكن للكوبيين مستقبل ، كانوا يعيشون للحظة، ولاسيما الاشد بؤسا الذين كانوا ينتظرون كل سنة ، بعد اربعـة اشهر من العمل ، عودة ثمانية اشهر من البطالة . وليس مثل الخضـوع والاستسلام قادرا على زيادة النسل : وليست العائلات المؤلفة مـن احد عشر ولدا نادرة في كوبا ، حتى في المدن ، حيث حافظت البورجوازية الصغيرة على بنية العائلية الابوية وايقاع الولادة القروي .

وفي عام ١٩٢٠ قام توازن سابق لاوانه بين مضاعفة الاولاد ومضاعفة اطنان السكر في كوبا . ومن سوء الحظ ان الانتاج بلغ ذروته عـام ١٩٢٥ ثم هبط ، وظل بالرغم من تحولاته القاسية ، ضمن حدود ثابتـة ومتقاربة بحيث ان مدة الولادات طغى على كل شيء . ففقرت في كـل مكان افواه جديدة ، افواه تطلب الغذاء .

ولكن الغذاء لم يكن ليزداد . وكان الاولاد افقر من الاباء . ان الاولاد يولدون من البؤس . والبؤس يولد من النظام القائم . ومـا دامت الصناعة متروكة حتى تاسن ، فان اولاد العاطلين سيكونون عاطلين منذ الولادة .

لقد كان على عبد القصب ، براتب الاربعة اشهر ، ان يعيل اسرة تنمو كل عام . فلم يكن مستوى الحياة يكف عن الانخفاض ، وفي الارياف كان ثمة ثلاثة ملايين رجل قد ولدوا من ابوين ناقصي التغذية ،فعاشوا وهم بحاجة الى التغذية ، من غير ان يعرفوا المجاعة الحقيقية ، امـا الشبان فكانوا يغادرون المدن لانهم لم يجدوا فيها عملا ، ويهاجرون الى اوروبا .

لقد كنت اتساءل منذ لحظة : من اي كارثة غير مرئية استمد الكوبيون هذه الطاقات الثورية ، المقنعة بالاستسلام والخضوع ، وهذا العنف الذي قذف بهم الى طريق الثورة ؟ وقد عرفت الجواب . انه في الحقيقـه مدار السكر . فعاما بعد عام يزيد ضغط تعداد النفوس ، الخصومـة المتبادلة بين ذوي الرواتب ، ويجعل من كل انسان ، تجاه كل انسان ، منافسا يريد ان يسرق منه مكانه . وعاما فعاما يميل الراتب المطلوب،من تلقاء نفسه ، نحو الصفر ، فيتزاحم الناس على العمل ، ويشتغلـون باجور زهيدة جدا . وعاما فعاما ينقص العدد النسبي للمدارس من غير ان يكون ثمة حاجة الى تخفيض نسبة فتحها وبنائها .

وهكذا يتماسك النظام بنتائجه . لقد خلق ، بلفاحات وحشية ، هذا المسخ المصاب بالداء السكري : جزيرة من السكر . وانتجـت الجزيرة بدورها مسخا : فاخذ رجل السكر يتنامى ويزداد .

وكان الوحش الابله يملك مكرا وجراة ، فتركوه يستعملها . بل اكثر من ذلك ، كان باتيستا قدانسحب الى الولايات المتحدة . فمـن نصحه بان يرشح نفسه عام ١٩٥٢ لانتخابات الرئاسة ؟ ومن مول المعركة الانتخابية ؟

ومن الذي اشار عليه بان يتخطى سقوطه المرجح بالقيام بحركـة الانقـلاب ؟

انها على اي حال ربة قصب السكر ! لقد جاء وهو يحمل رسالة محددة : ايقاف تضخم الانتاج ، اي القاء الوف العائلات الفلاحية فـي البؤس ، وكم فم الجزيرة .

ولكن اذا كانت مصالح السكر ، قد وجدت عام ١٩٥٢ مدافعا يبلغ هذا الحد من الفظاظة والخشونة ، فان ذلك لم يكن بالتاكيد بالمصادفة او بالاتفاق . ان « ماشادو » نفسه الذي حكم كوبا بالطغيان حتـى عام ١٩٣٣ ، كان يظل على مستوى الانسان . انسان نهم بكل تاكيـد ، وشرير : ولكن الجزيرة لم تكن قداصبحت بعد مريضة جدا ، ولم تكن بحاجة بعد الى حكومة ـ قرد .

وحين تولى « شامبانزي » السلطة عام ١٩٥٢ ،كانت الاوراق قـد طرحت ، واللعبة قد لعبت ، وكان اسياد الجزيرة ـ في داخلها او فـي الخارج ، يدركون بغموض انه لم يكن ثمة الا الخيار بين امرين : فامـا ان يكون الكوبيون قرودا ، اويكونوا ثوريين .

ذلك ان النظام قد اصدر حكمه على نفسه : لقد زادت نسبـة البؤساء في الشعب ، خلال خمسين عاما ، اربعة اضعاف . هل هـذا تضخم في زيادة عدد السكان ؟ كلا ! فان باستطاعة الجزيرة ، اذا استثمرت استثمارا صحيحا ، ان تطعم ، بكل يسر ، عشرة ملايين نسمة .

ولكن نظام السكر ، بكبار ملاكيه ،اصحاب « اللاتيفوندیا » ، هـو الذي كان يعتبر المواليد الجدد على انها حيوات فائضة زائدة عـن اللزوم .

وحين كان البعض يوضحون للفقراء منذ وقت طويل بان الانسـان قد ولد في الدنيا ليعصر الارض بيديه العاريتين حتى يجعلها ترشح عصير القصب : « فاذا لم يكن سكر ، لم تكن ثمة جزيرة » ، كانوا يوضحـون لهم ايضا ان هذاالقانون كان يحكم عليهم بان يعيشوا عيشة رديئة، وان عليهم ان يقبلوا بنصيبهم .

ولقد قبلوا به ، ما وسعهم ذلك . ولكن خصب البؤس كان ماينفك يخفض مستوى الحياة : وفتحوا اعينهم ذات يوم ، وهم في خضوعهم ذاك ، فوجدوا الوضع اسوأ من ذي قبل ، وكان من الواجب عليهم ان يبذلوا جهدا جديدا ليظلوا قادرين على احتمال ذلك الخضوع .

كانوا قد اقاموا الدلائل امامهم على استحالة العيش بصورة كريمة، ولكن اجسامهم اخذت تمارس فجأة تجربة استحالة اخرى: تجربة ان يموتوا مسحوقين كالحيوانات . ولقد سمع « كاسترو » ، وهو ابن عين من اعيان « اوريانت » ، سمع وحده تقريبا التمتمات الاولى ،الاصوات الاولى التي كانت تقول :

« إن هذا لا يمكن ان يدوم ، فيجب ... استبدال « البوهيو » باي ثمن . »

كان الهنود ، قبل انينصرفوا نهائيا ، منذ ثلاثمئة سنة ، قد تخلوا للبؤساء الذين كانوا يسهرون على بؤسهم ،عن اكواخهم وعلموهم طريقة بنائها .و « البوهيو » هي نوع من الاكواخ ، بني بواسطة بعض الواح خشبية تقام حول عمود يحمل سقفا مدببا مصنوعا من سعف النخيل المجفف . وارضه من طين . وقد كان يعوزه كل شيء : الكهرباء بكل تأكيد ، ولكن المراحيض ايضا . وعلى ارض سوداء باردة كان ينغل اولاد هزال مرضى . اما الرجال فقد ذهبوا الى الحقول .

وكنا نرى احيانا ، على العتبة ، امرأة تنظر الينا نمر . تارة تكون بيضاء ، وتارة زنجية . ولكن الزنجيات والبيضاوات يملكن العيون الثابتة المجوفة نفسها .

ونحن لا نعرف في اوروبا هذا البؤس في الغزارة والخصب . إن الفيضان النباتي يغطي كل شيء بحرائره واصوافه . وقد وجب تمزيق السجاجيد وقصها الى دوائر لكي توجد من جديد ارض للانسان : ارض عارية .

والارض تقذف الى السماء هؤلاء الاسياد المتوحدين : النخيل الملكي. وبين هذه الاجسام البيضاء الرقيقة المنتفخة بالنسغ ، كان « البوهيو » شاهدا على ان العوز يصدر للبشر عن البشر . فبحقنات مكثفة من الدولارات ، زرع الاغنياء الفقر ، وندرة المؤن ، والجهل ، في قلب خصوبة لا تصدق .

ولقد رأى كاسترو هذه المفارقة التي تزداد بدهية ووضوحا . وشعر بانها ستكون مصدر الثروة الفلاحية ، ان هؤلاء الرجال لن يقبلوا بعد ، لمدة طويلة ، ان يعذبوا في الارض ليطعموا اجانب وغائبين. وسوف يرفضون عما قريب ان يشتغلوا وبطونهم خاوية ، وان يشوهوا، تحت ضغط الاوامر ، هذه الطبيعة التي لا تنفد خيراتها ، ليقسروها على عدم اطعامهم وتغذيتهم . لقد كانت هذه الثروات ، التي هي في متناول اليد ، تكشف عن البؤس ، على انه جريمة .

ولان كاسترو حدس بهذه الفضيحة العميقة حين كان الفقراء انفسهم يشعرون بها من غير ان يدروا ، فقد اكتسب لنفسه ، منذ عام ١٩٥٢ حق قيادتهم الى النصر .

واتخيل ان هذا هو مصدر هذه النزعة الطبيعية التفاؤلية التي لاحظتها غالبا لدى الكوبيين الثوريين ، ان الطبيعة خيرة ، وان الانسان هو الذي يصنع الشر ، ولا بد لي من العودة الى هذا .

اما الان ، فنحن ما نزال في مرحلة التشخيص ، نحن امام مجتمع يعيش على البنيات البدائية للعهد الاقطاعي ، ويجد نفسه مطحونا بجهاز اقتصادي يحيله الى نصف مستعمرة ، مجتمع خصب بسبب البؤس ، وهو يختنق في جزيرته ، وسط اراض بور وموارد غير مستغلة.

ان قبضة من الرجال قد ساقت الشعب الى الاختناق ، وسوف تكفي قبضة من الرجال لكي تدعوه الى الانتفاض وتحطيم الالة الجهنمية والقائها في جوف البحر .

ان بوسع الغضب ان يحرك ثورة . ولكنه لا يكفي لقلب نظام . ولكي يرتمي شعب برمته على قلعة اسياده ، فيجب ان يعطى املا ما .

وكان الكوبيون قد فهموا ، في اثناء تقهقرهم المستمر ، ان «التاريخ» يصنع الرجال . بقي ان يقام لهم الدليل على ان الرجال يصنعون التاريخ .

كان يجب انتزاع « المصير » ، هذه الفزاعة التي غرسها الاغنياء في حقول قصب السكر .

وكانت الامة الكوبية قد شبعت واتخمت برامج . وفي عهد « الديمقراطية » كان بعض سادة المدينة قد اسكروا الفلاحين بالكلام العذب .

فعمل بسيط واضح ، كان وحده جديرا بان يرد لهم شجاعتهم ، شريطة ان يتميز بكثافة الحادث الثابتة ، وان يكون ، بمظهره ، غير الناجز بعد ، بداءة لا تقوم على وعود ولا كلمات ، لمشروع يتطلب تعاون الجميع للوصول شريطة ان يغير الحياة ، وان يبث فيهم رغم الاتحاد ، ليصلوا بهذا التغيير الى حدوده القصوى .

وجاء هذا العمل . فذات يوم ، سقطت الصاعقة ، من اعلى قمة في الجزيرة ، على السهول : فقد عزم « عصاة » كاسترو الذين يطاردهم الجيش والشرطة ان يشرعوا فورا بتوزيع الاراضي ، وابلغوا البلاد ذلك .

*

قال لي كاسترو منذ ايام انه كان ثوريا بطبعه ، وحين سألته ما الذي يقصده بذلك اجاب :

ـ ذلك انني لا استطيع ان اتحمل الظلم .

واعطاني امثلة استمدها من طفولته ومن حداثته ، وفهمت انه كان يحدثني عن نفسه وحده ، وعن المعاملات السيئة التي كان يتعرض لها . والذي راق لي في هذا الجواب ، هو ان هذا الرجل الذي حارب وما يزال يحارب من اجل شعب ، والذي ليس له من مصلحة اخرى ، غير مصلحة الجميع ـ قد عاد بي اولا الى غضباته الشخصية الى حياته الخاصة .

هيروشيما حبيبي ...

مأساة الحرب .. والحب !

قصة رائعة بقلم مارغريت دورا اخرجت في فيلم ما يزال يثير حتى اليوم ضجة كبيرة في اوساط العالم ويشهد اقبالا لم تعرفه الا افلام رفيعة نادرة .

ولم يسبق لقصة ان عبرت كهذه القصة تعبيرا دقيقا رائعا عن الصلة التي تربط بين الحب والحرب من حيث عنصر الفاجعة .

والواقع ان المؤلفة قد وفقت توفيقا كبيرا في رسم نفسيتي الرجل الياباني والمرأة الفرنسية اللذين يعيشان هذه المأساة : مأساة الحرب .. والحب !

الثمن ١٥٠ ق.ل منشورات دار الاداب

وقد قال لي : انه لم يستسلم مرة واحدة للظلم ، وانه كان يرد الصفعة صفعتين ، حتى انه طرد من المدرسة . واني لاتمثله ، وهو في الخامسة عشرة ، مخاصما صغيرا ، قاسيا صغيرا ، غير قابل للكبح ، وانه كان خاسرا . وكان هذا الابن لاحد الاعيان تلميذا داخليا في سانتياغو ، وكان يقضي عطلته في ملك ابيه . في « الاوريانت » . وكان اخوه الاكبر قد بدأ يستعد ، لا من غير سرور ، ليستأنف حياة والده. ولكن لم يكن فيديل ولا راوول الاصغر منه سنا ، يعلمان ما الذي جاءا يصنعانه في هذا العالم .

وكان « فيديل » يأمل انذاك ان يخرج من هذا الارتباك باكتساب المعرفة ، ان العالم سيهبه انواره ، فيفهم ويستطيع ان يصفي عقدة الافاعي هذه في نفسه ، وهذا العنف المختلط الذي كان يخنقه .

وسافر الى هافانا العاصمة ، فدرس ، ولكنه اصيب بالخيبة : لقد تعلم لا جدوى الكلمات ، كان الاساتذة يتكلمون لكي لا يقولوا شيئا امام فتيان حائرين .

اما الاسئلة الرئيسية ـ التي يتبرم لها شاب لدى دخوله الحياة ـ فقد كانوا يحرصون على ان لا يجيبوا عنها . مما يدل على قوة فكره. شعوره بان المناهج والدورس غير كافية الى الحد الذي يشعر معه بان ذلك ظلم يريدون ان يخضعوه له. كانوا يريدون ان يغمسوه في جهل عابث ذليل . واعتقد ان هذه هي المرة الاولى التي يعبر فيها عن فكرته التي هي مصدر لا ينكر لكل نشاطه التالي : فمهما كانت العوامل الطبيعية، فان المصائب التي تفجع الناس ، تأتيهم من ناس اخرين .

لقد كان سادة الجزيرة الكوبيون ، وهم الطغاة الكسالى الشرسون يحذرون العلم والمعرفة ، لانهما كانا يقودان الى الفساد والخراب . وكان اتلاف التعليم العالي امرا مقصودا ، فمن اجل حماية التخلف الاقتصادي الكوبي كانوا يجهدون لكي لا ينتجوا في كوبا الا رجالا متخلفين

وان عنف كاسترو ليس من قبيل السعر والجنون ، فهو يظهر في الهدوء بقرارات لا تتزعزع ، انه لن يستسلم ، حتى ولو قلب الطبقة التي كانت تريد ان تقطعه .

ولو ان هذا التصميم كان لدى شخص اخر ، لظل في حيز الكلام ، اذ ما الذي يستطيعه شاب وحده مقابل مجتمع برمته ؟

غير ان ما جعل هذا التصميم عمليا ، وفيما بعد فعالا ، هو انه اكتشف في الوقت نفسه ، ضد اساتذته ، وضد عائلته ، وضد طبقته ، ان النظام نفسه كان ، للاسباب نفسها ، يمارس ضغطا واحدا على الطلاب ، اذ يحرمهم العلم ، وعلى اولاد الارياف ، اذ يحرمهم المدارس ، وعلى العمال ، اذ يقنن خبزهم .

وهذه الرؤية الواحدية للمشكلات الكوبية ستصبح فيما بعد « حقيقة الثورة » .

ولم يكن ذلك بعد عام ١٩٥٢ الا شعورا مسبقا . وقد اوشك ظهوره المبكر ان يطيح بفيديل .

والواقع ان الشاب لم يشك لحظة واحدة بان رفاقه ، وفي نهاية الامر ، سكان الجزيرة ، يشاطرونه غضبه . فما دام هذا الغضب يزمجر في نفسه ، فانه كأن يزمجر في كل مكان . وبدافع من التفاؤل، لم يقدر تقديرا حقيقيا ارتيابية مواطنيه . فان الخضوع ، هذا النتاج الدون للاضطهاد ، كان يقنع تمردهم العميق .

كان كل منهم ينتظر ان يبدأ جاره بحمل السلاح حتى يحمل هو السلاح . وفكر كاسترو : « سأبدأ » .

سوف يهاجم ثكنة « مونكاد » فتكون تلك الشرارة ، وفي اللحظة التالية تنفجر الثورة .

*

في تلك الفترة ، كان الاخصائيون يعزون مصائب الجزيرة ، بكل رضى ، الى الطبيعة القاسية ، او الى ترتيبات التاريخ : ونظرة كاسترو الثورية العميقة هي التي جعلته يبحث عن المسؤولين بين البشر انفسهم.

ان الية مخيفة تكتسح المجتمع : فيجب تغييرها . تلك هي البدهية الاولى ، ولكنها لم تكن لتغير ، فما الذي يمنعنا من ذلك ؟ اتكون مصالح كبار الملاكين الكوبيين والراسماليين الاجانب ؟ هذا ما لا سبيل للشك فيه . ولكن كم يبلغ عدد هؤلاء ؟ واية قوة تلك التي تخضع البؤساء والفقراء والجائعين والعاطلين ، اي الجزيرة كلها ، لنهم قبضة من الاغنياء، فتسحق الكوبيين وتمرغ انوفهم في التراب، فيما هي تقنعهم بان عليهم ان يقبلوا عبوديتهم كانها القدر !

وفكر : انها الجيش . ان الجيش الكوبي هو اذن اخطر اعداء الامة الكوبية .

ولماذا كان الفساد يبدو منذ خمسين عاما وكانه قانون كوبا نفسه ؟

حين كان الديمقراطيون المتناوبون يقومون تحت قيادة امثال غرو او بريو ، بحملة ضد الحكومة الفاسدة ، وضد ارتشاء كبار الموظفين ، وحين كانوا يطلبون من الشعب ثقته ويعدونه بالاصلاحات ، وبتعيين وزراء ذوي ضمائر ، وموظفين لا يتزعزعون ، كانوا دائما يخيبون هذه الثقة ، ويفشلون في الوفاء بوعودهم .

انهم في البدء يكونون شرفاء ، ولكنهم ما يلبثون ان يصبحوا اشد نهما وفسادا من اولئك الذين كانوا يطردونهم . ذلك انهم اذ كانوا يتسلمون السلطة ، يقومون بالتدرب على العجز ، كان الرؤساء يتقاسمون الالقاب والامتيازات والمساكن التي كانت تحق للوزراء ، وكانوا يلاحظون بسرعة انهم لم يعطوا صلاحيات الحكومة، فكانوا احيانا يطالبون بها كبار الملاكين ، فيجابون « تعالوا خذوها » . وكان باب كبير يدفع ، فاذا وراءه جنود . وكان هؤلاء الوزراء بلا سلطة يرون سلطة بلا وزراء ، يرون القوة الضاربة .

والحقيقة انهم لم يكونوا يملكون وسيلة للعمل ، كانت تنزع منهم ازمة الامور ، فكانوا يجدون انفسهم ، وهم على رأس البلاد ، على غرار ما كانوا في المعارضة : متكلمين .

وكان الشعب قد بدأ يثرثر ، كبيغاء « زازي » : « انك تتحدث ، تتحدث ، وهذا كل ماتحسن صنعه . »

ولكن حين كانوا يكتشفون الخداع والتضليل ، يكون الاوان قد فات، فقد كان يجب عليهم ان يستقيلوا في يوم نصرهم الانتخابي بالذات، بل كان عليهم اكثر من ذلك : الا يبرزوا ايضا مظاهر السلطة . ولما كانوا رهائن الطبقة الموجهة ، فقد كانوا ضالعين في ذنب تقديم المهزلة للناخب ، لقد غطوا دكتاتورية كبار الملاكين ، اصحاب اللاتيفونديا ثم يعود الشبان والشيوخ ، في الصمت او في احاديث هامة ، فيستأنفون حلمهم الكوبي : ترى ، هل يحكم الجزيرة يوما رجال شرفاء زاهدون غير قابلين للفساد ؟ لماذا لم يحدث ذلك مرة واحدة بالرغم من التجديد المستمر ، والقاسي غالبا للسياسيين ؟

وكان قد سبق للمنفي في المكسيك ان فكر في شان الجيش الكوبي ففهم ان مصدر فساده يعود الى اسبابه بالذات .

وكان يقول في نفسه : مهما يكن من امر ، فان المستعمرات تتميز عن انصاف المستعمرات ، بان الفساد السياسي لا يقوم فيها ، لعدم وجود سياسيين قابلين للفساد . صحيح انه يشترى في المستعمرات ملوك صغار ، هم بكل بساطة خونة ، ولكن انصاف ـ المستعمرات هي بحد ذاتها اكذوبة ما دامت حقيقتها هي الاستعمار . واذن فان جميع الكلمات كاذبة ، ويجب ترجمة جميع العقود الاستعمارية بلغة ديموقراطية فيسمى « اتفاقا حرا » ما يسمى في الحقيقة « واجبا من جهة واحدة » .

وهكذا تكون مهمة « الحكومة » نصف الاستعمارية ، ولو كانت شريفة ـ يعني في الاشهر الاولى فقط ـ هي ان تشوه اللغة وتحرف الكلمات عن شعبها . فهي تخون دستوريا . وان خيانتها ، المكتوبة في طبيعة الاشياء تنتظرها ، حتى اذا لمحتها ، وقد تعبت من ان تبيع نفسها مجانا، وعلى مضض منها اضطلعت بمهمتها بجرأة وطلبت تعويضا .

وكان كاسترو يفكر : كلا . ان الكوبيين لا يولدون لصوصا ولا وكلاء خزينة سارقين . ان الفساد يولد من العجز . والعجز يولد من سيادة وهمية تقنع التبعية المطلقة لاقتصادنا. وهناك قوة واحدة تحول

دون ان يظهر هذا التضليل للعيان : هي الجيش . وهو نفسه تضليل وخداع ما دامت مهمته الحقيقة الخبيثة هي ان يهدم السلطة التي يدعي انه يدعمها .

كان غاندي يريد ان يهدم نظام الطوائف .

وقد قال نهرو في مكان ما ان هذا النصر الكبير للاعنف ، كان يملك حدسا ثوريا صحيحا ، فقد بحث عن الحجر الاساسي الذي كان يدعم البناء كله ، فوجده في طبقة المنبوذين ، ومنذ ذلك الوقت لم يكف عن مهاجمتها ، وكرس لها كل وقته وجميع طاقاته ، مقتنعا بان النظام كله سينهار حين تتفتت هذه الطبقة .

وهذا ما فعله كاسترو : كان الجيش هو الحجر الذي يجب تحطيمه . وقد ادت هذه التأملات لديه الى تغير في الهدف لم يلاحظه احد : فقد كان يظن في هافانا وفي مكسيكو انه كان يهاجم باتيستا ، حين كان لا يحسب لباتيستا الا نصف حساب .

فلو ان اركان الحرب الكوبي اتخذ المبادرة لقلب الطغيان ودعوة الشعب لحمل السلاح ، فان الجيش كان سيظل العدو العام رقم واحد . ذلك انه كان سيفسد ديمقراطيي المستقبل هؤلاء كما افسد اسلافهم . ولكان سيسحب من صدره في اللحظة المناسبة ، الطاغية الذي يحل محله.

اما النقاوة التي كانوا في كوبا ما يزالون يحتفظون لها بالحنين ، فان كاسترو ما كان ليعطي قطرة واحدة من دمه ليردها الى السياسيين المدودين ولكنه كان مستعدا للمجازفة بحياته لكي يؤمنها للفرق الجديدة وليقيمها على الممارسة الحقيقية للسلطة ـ وبعبارة اخرى ـ على الاستقلال المسترد .

وقرر ان يعود وحده تقريبا الى الجزيرة يشتت الخمسين الف رجل المسلحين الذين كانوا ينتظرونه.

ولكنه كان يعترف الان بخطئه : ان محاولة القيام بحركة في المدن حيث يسود الجيش ، معناها الاعتماد ببساطة على مساندة بعض العناصر العسكرية ، وهذا يعني التعاقد والتحالف ، ومن ثم الخسارة ولهذا قرر كاسترو ، وقد اصبح اكثر خبرة ، وادرك انه يقذف نفسه في صراع مميت ـ قرر في دورة الثأر ان يضرب العدو في منطقة ضعفه الوحيدة : فعزم ان يقاتل بعيدا عن المدن . في الطبيعة .

ان الارض هي عدو الجيوش الكلاسيكية ، فهي دائما «اوسع مما ينبغي» بالنسبة للعسكريين ، فهم يضيعون فيها . وكان هؤلاء الامراء يشعرون بالجذل في الحقول ، والوحدة تحيط بهم ، كان بالامكان مهاجمة المراكز واحدا بعد واحد واسر محتليها .

وكم سيشعر اركان الحرب بالارتباك اذا ارسلوا امدادات . فان عليهم ان يؤمنوا المواصلات والتموين ويتقدموا خطوة خطوة : صحيح ان الارض كانت تهتز تحت هذه الصفوف الثقيلة ، ولكنهم لم يكبدوا الثوار قط اية خسائر كبيرة .

كان كاسترو ورفاقه المنسحبون خلف اسوار طبيعية ينظرون مجيء الجيش ، وهم على ثقة من ان الفرق ستتحطم على سكاكين الجبال .

ولقد ذكرت ما كانت عليه الحرب في مرحلتها الاولى : فرار « مسرحي » حول القمم . واذ كان كاسترو يهاجم الثكنة وينزد معسكره الطائر عبر جبل « مايسترا » ، كان يتبع المبدأ : بدء العمل ، ثم الانتظار . مع فرق واحد : هو انه كان ينظم نفسه ورفاقه هذه المرة ، لينتظر طويلا .

ولم يكونوا يستطيعون في البدء ان يعتمدوا على احد . فان الدليل الاول الذي تطوع لخدمتهم اوشكوا ان يقتلوه ، فان الجيش كان قد اشتراه .

وقد ساعدهم بعض الفلاحين . واتيح لي ، منذ ايام ان ارى احدهم ، وهو قد اعان الفرقة الصغيرة ويبدو انه انقذها من الموت . انه كومندان شيخ شديد البأس ، ذو لحية رمادية ، وان من ينظر اليه يحدس بان حلفاءه في الساعة الاولى كانوا ينتمون جميعا الى اوعى فئة من فئات طبقة الفلاحين .

ولا ريب في ان هؤلاء كانوا يعرفون القراءة ويحاولون ان يتعلموا وان يثقفوا . اما الاخرون ، وعددهم قليل في الجبل ، او حواليه ، فقد كانوا يلتزمون الحذر . كانوا يتساءلون : ماذا يريد هؤلاء الاشخاص ؟ اننا لا نعرفهم . ثم انهم لن ينجحوا الا في خلق المتاعب لنا .

وفي البدء ، حين كان كاسترو ورجاله/ يريدون سؤال فلاح عن حركة ما من حركات الجيوش او عن طريق يسلكونه ، كان لا بد لهم من اسر هذا الفلاح ، والا فان المسكين اذ يرى هؤلاء الرجال المريبين ينبثقون من البعيد ، يترك منجله ويلوذ بالفرار .

لقد تعودالثوار ان ينبعوا من الارض كالشياطين، وان يشكلوا دائرة حول الرجل ، وان يمسكوه بلاعنف . وكانوا يطرحون عليه بلطف اسئلة لم تكن تحظى دائما بالجواب ، وكانا يقومون ببعض الدعاية ثم يتركونه يمضي .

غير ان القضية اتضحت منذ تلك اللحظة : ان الثورة الكوبية ستكون ثورة فلاحين ، او لن تكون ابدا . وقد كانت هذه الضرورة صادرة عن الاشياء اكثر منها عن الرجال . ولم يكن في الامر حيلة .

ففي البعيد البعيد كانت المدن تنسحق في العجز . اما الريف فكان يفرض على التمرد شكله ، حتى قبل ان يشارك فيه ، فحين اختار المتمردون مهاجمة الثكنات الريفية الصغيرة المتناثرة ، كانوا يهاجمون عدو الفلاحين ، وكانوا يجعلون انفسهم فلاحين بالذات بطراز حياتهم ، ويطلبون معونة الفلاحين الذين كانوا يحمونهم .

وكشفت حرب العصابات الستار عن متطلباتها . فلكي تستطيع فرقة صغيرة سريعة ان تتبع بصورة مفاجئة فترهق العدو وتختفي ثم تظهر ثانية وتضرب ضرباتها في اليوم التالي على بعد عشرين فرسخا . فيجب ويكفي ان تعتمد بلا تحفظ على السكان الريفيين.

والارض لا تقل اتساعا بالنسبة لعشرين متمردا عنها بالنسبة لفرقة من الجيش النظامي ، فانهم هم ايضا سيضيعون فيها . ولكن وحدة الجندي المأجور وحدة نهائية .

فهو اذا جرح ، مات في وسط السهول : واذا اراد المتمرد ان يربح ، فيجب ان تكون هذه الوحدة بالنسبة له وحدة مؤقتة : وينبغي للطبيعة المنعزلةالتي يجتازها المرتزق من غير ان يلاقي روحا تعيش ، ان تتحول ، بالنسبة لهذا التمرد ، الى عش يفلي بالحلفاء والانصار .

ولم يفكر كاسترو ولا رجاله في ان يحالفوا الفلاحين بالارهاب على الاطلاق : فذلك هو شرفه . ولو لم يكن هناك وسائل اخرى ، لفضلوا الاختفاء .

وقد كانت هذه الجريمة هي الخطأ السياسي الاكبر الذي لا يمكن الصفح عنه : فان فرق باتيستا هي التي كانت ترهب البلاد ، وكان لذلك نتيجة واحدة : هي اخلاء الجو حول هذه الفرق. وما كان لارهاب معاكس يقوم به المتمردون ان يحرز نجاحا اكبر . فعلى العكس،

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — صدر حديثا

كانت حياتهم في هذه الاشهر الاولى مرتبطة بخيط ، وكانت خيانة الدليل قد علمتهم ان وشاية واحدة كان يمكن ان تسحق الثورة في مهدهـا . ولم يكن هنالك الا حل واحد : هو ان يكونوا موضع حب .

كان ينبغي للثورة ان تنتقل الى ايدي ثلاثة ملايين رجل وقـد كان يصعب عليها جدا ان تنزع منهم الحذر الا بان تقيم الدليل انها انمـا تقوم من اجهم هم : وكانوا منذ حرب ١٨٩٥ قد اقسموا ان لا يخرجوا الكستناء من النار من اجل عيون المدن .

ولقد كان المتمردون الشبان محامين واطباء واقتصاديين وصحافيين ينتمون جميعا الى المدن ، فكان عليهم هم ان يحملوا الفلاحين على نسيان تلك الحرب .

ولكي يصبح الفلاحون متمردين ، جعل المتمردون انفسهم فلاحين، اخذوا يشاركون في اعمال الحقول . لم يكن يكفيهم ان يعرفوا حاجات الريفيين وبؤسهم : بل كان ينبغي ان يعانوها ويحاربوها في الوقـت نفسه ، وسيكون الفلاح مستعدا للاصغاء اليهم بقدر ما يتعرف الى نفسه فيهم : فضربة منجل محكمة تقطع السيقان كمـا يجب اشد تاثيرا عليه من خطاب طويل .

واذا طلبت حرب العصابات هذه الصلات الجديدة بـين الثائرين وبين الشعب ، كان من حقها ان تعرف نفسها اخيرا باسمهـا الحقيقي : « الحرب الشعبية. »

ان تفكير كاسترو ينطلق من ذاته الى المجموعات ، من الجـزء الى الكل . ولقد ادرك بسرعة هذا الانقلاب المفاجيء في المنظـورات . ان تعايش الشعب مع المدافعين عنه ، سيجعل المتمردين موضع الحب . ولكن هذا لن يحبب ضرورة بالثورة .

كان قد صمم على هزم الجيش النظامي لتكون يـداه طليقتـين فيقول بالاصلاح الزراعي . ولكنه كان يلاحظ في اثناء العمل انه لن يربح مساندة الجموع الكلية ! نلم تصبح الثورة مصلحتهم المشتركة .

وبالاختصار ، كان لا بد من هزم الجيش للقيام بالاصلاح . ولكن كان يجب القيام فورا بالاصلاح ـ لا الوعد به ـ اذا كان يراد هزم الجيش.

ولم تكن هذه الدائرة مفرغة الا في الظاهر : فاذا كان ينتقل من المشروع المجرد الى الواقع ، كان يلاحظ ببساطة ان حياة هؤلاء المساكين لـن تتغير الا اذا غيروها هم انفسهم بانفسهم ، وفي كل يوم . فاذا هو يجهد في ابتعاث ثورتهم في حملهم على اكتشاف متطلباتهم ذاتها .

وقد فهموا بسرعة : فاللاتيفونديا ، والمزارع ، والزراعة الموحـدة ، هي مصدر الامهم . ولم يكن الاصلاح يقدم كما لو انه هبة كريمة مـن الحكومة المقبلة للشعب ، وانما كانت تشرح لهم ضرورتها القومية ولزوم انجازها السريع . لم يكن يقال لهم : ان البلاد ستكون سخية معكم، وانما كان يقل : ان الامة تضيع نفسها اذا ضيعتكم . وللمرة الاولى ، منذ مطلع القرن ، احسوا انهم في جزيرتهم ، مواطنون .

وكان من شان الاصلاح الذي شرع به ان يمنحهم الثقة بجيـش المتمردين . وكان من شان الانتصارات العسكرية ان تمنحهم الثقـة بالاصلاح : فما دام القتال قائما من اجله ، فان كل اشتباك كان يقدم ساعته ، بل اكثر من ذلك ، ان كل اشتباك ، كان هو الاصلاح زاحفا .

ان الحاجة تمضي الى نهاية نفسها منذ ان تعرف اسبابها ومتطلباتها: لقـد كـان الوعـي ، على طابعه السلبي ، سـريعا وعاما، وفي هـذه المرحـلة الجديـدة من الحرب تغير الفلاحون : فاذا باولئك الخاضعين ياخذون لحسابهم خطط الثائرين ويتبنونها كمطاليب ، بحيث انهم هم الذين سيجعلون مطالب الثـوار جذرية على نحو ما .

كان الاصلاح الزراعي هو حرب العصابات . ولكن حرب العصابات كانت هي الاصلاح الحقيقي : كانت الشعب الذي يدعم حركة الانقلاب فيمتصها ويحيل هؤلاء المتمردين ذوي الاصل البورجوازي الى فلاحين ثوريين .

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

دار الاداب تقدم

في

سلسلة الجوائز العالمية

اروع رواية للكاتبة الوجودية العالمية

سيمون دو بوفوار

المثقفون

الحائزة على جائزة غونكور الكبـرى

ترجمة جورج طرابيشي

* **تصوير صادق للصراع الفكري والسياسي بين اعلام الوجودية وعلى راسهم سارتر وكامو ، البطلان الرئيسيان في الرواية**

* **موقف اليسار في الحرب وما بعدها .**

* **في اطار رواية غرامية جذابة تمثل فيها المؤلفة نفسها دور البطلة الرئيسية !**

تصدر قريبا
في جزءين